مذكرات شاعر جوال

ديوان شعر لحسين راجي

ديوان شعر كامل ، ولكنه قصيدة واحدة لا غير .. تلك مذكرات شاعر جوال ، ورب قوافيها انسان رحالة عن حق ، مادة ومعنى .

انحدر آباؤه من جبال القفقاس ابان احدى الحروب العثمانية الروسية ليستقروا في ديار الشام حيث رأى الشاعر النور ، حتى اذا كان له وجود فكري أسلمته الايام للقرى تتداوله فيما بينها معلما ابتدائيا في الريف السوري ، ليعود في كل صيف الى حلب ، مدينة سيف الدولة وشعر المتنبي .

ثم ـ ونتيجة لظروف خاصة ـ حملته الموجة الى ربوع أوربة الشرقية حيث درس اللغات السلافية ، وأجيز بها ، وكان لا ينفك يتنقل في عواصمها يدرس ويكتب ويترجم ، واكثر من ذلك يحلم ويحلم :

« هو ذا أنت
أحذية من لون الارض
وقميص أزرق
نصف في التربه
نصف آخر فوق الغيم
بذرع أرصفة الغربه
.. روحك تجتاز الالوان
تمتص الالوان
تختزن الالوان
وتكتب شعرا للالوان ! »

وبانتهاء تلك المرحلة ، كانت له جولة في الشمال الافريقي ، وبخاصة الجزائر ، ليستقر قليلا بالربوع اللبنانية ، وليلقي بعدها عصا الترحال في دمشق مدبرا للبرامج الاجنبية في الاذاعة السورية ، يكتب المقال ، وينظم القصيدة ، ويحبر القصة ، ويرسم الكاريكاتور.. بصدر في كل ذلك عن تجربة صادقة ، ومعاناة حياتية واعية .

ومن دمشق ، دفع بمخطوطة قصيدته ـ الديوان الى الاستاذ محمود أمين العالم في القاهرة ، حيث صدّر تلك الاضمومة الشعرية بكلمة عاطرة ختمها بقوله :

« ولست أعرف للشاعر حسين راجي شعرا قبل هذه القصيدة ، ولكن أستشعر فيها بداية رحلة كشف بالغة الخصوبة في حياة شاعرنا ، في حياة شعرنا » .

وبالطبع ، ليس هذا التمهيد ضربا من الشهادة يقولها صديق حميم لصديق أثير .. والشهادة الكبرى للشاعر كلمته .. فافيته .. مرآة نفسه ، وترجمان خطرات ذاته ، في أسمى حالاته الفكرية ، وأغنى معاني وجوده الانساني .

واذن ، لا بد لنا من جولة مع هذا الشاعر الرحالة ، عبر ذلك المخاض الفكري الذي تمزّق فيه « أنا » الشاعر شرنقة الانانية الذاتية، فراشه مهومة مدومة عبر المدى الارحب ، والافق الاشمل ، مؤكدة وجودها بطاقة زخارة بالحياة ، وديناميكية متفجرة ، منداحة بالشاعر عبر رحلة بناء ذاتية وجودية تتكشف خلال الحركة الصاعدة ، في صلب معاناة الانسان الجماعية ، دراسة لقضاياه ومشاكله وطموحه ...

وأول ما يسترعي انتباه القارىء الناقد ذلك التأكيد على هوية الشاعر ، في اطار تلك التجربة التي اعتمدت الرمز والشفافية الشعرية ، وبأنه يحمل هموم قضية ، بعيدا عن العبثية والانهزامية والتقوقع ، والتمزقات الداخلية ...

وبأن كلمته تتفاعل بتفهم واع مع حركة الولادة الجديدة لحركتنا الفكرية المتعمقة بقضايا الانسان المعاصر ، تأكيدا على ثقته بالمستقبل ، خلال نضاله لنفي واقع الجمود ، وما يعتري ذلك الواقع من مخلفات غيبية سائدة ، ووثنية جديدة يعيشها انساننا العربي ، في اطار العالم الثالث « تحت سماء الشرق البلهاء » .

وهكذا ... ولكل رحلة منطلق ، فلنبدأ حيث بدأ الشاعر قصيدته الجوالة ، مكانا وزمانا ... نتلمس محاولاته الذكية ، بتمخض الكلمة التي تسم عصره ... يتنازعه عالم الجمود والانطلاق ، والجهر المدوي العاصف ، وهمس الجرس الواجف ، بجناح يتعشق الآفاق العلوية ، وأرجل تحجل في الاصفاد الارضية ، في حكاية تذكرنا بحياة بصير المعرّة وحكيم العرب عندما جسد محنة الفكر الحر التي ما تزال تتكرر وتتكرر منداحة في المكان متغلغلة في الزمان ، اذ أملى على أمين سره :

اذا قلت المحال أطلت جهري
وان قلت الحقيقة طال همسي

ومع ذلك ، يأبى شاعرنا الا ان تكون كلمته ترجمة صادقة لخطراته الشعرية ، ومعاناته الفكرية ، ويأبى عليه الطموح الا ان تكون ريشته راسم نبضات قلبه في تلك التجربة العسيرة :

« أن يلهث خلف المطلع كالطفل المنعب
ان يختار الصور الاكثر جدّه
والاكثر حدّه
كي يلمح عالمنا وجهه
أن يبدع شعرا يشبه نبض القلب .. »

ولنتابع الشاعر بتجربته التي ارتبطت بالموجة الحديثة التي خرجت بشعرنا العربي عن محور الفنائية الذاتية ، منطلقة به الى رحاب قضايا الانسان الوجودية ، وتجارب الحياة الكلية ، عبر تلك الوحدة الجدلية بين الذات والموضوع ، وجاء الرمز ليكشف تلك التجربة عبر الرؤى الشعرية ، التي تربط الانسان بأبعاده الجماعية ، لصوقا بالوجود الاجتماعي والسياسي ، من واقعنا الراهن .. نعم لنتابع الشاعر في معاناته تلك لخلق القصيدة التي يريد ، والتي كلما آنس منها قربا ازدادت بعدا ، واعيا الواقع بريشة الفنان ، لا لشيء الا لترفع الفنان عن النقل الفوتوغرافي ، تجاوبا وطاقة الابداع التي تعتمل في أعماقه :

« هي ذي علبة تحميض في صدرك
انعتها كيف تشاء
ـ القلب ؟!
هذا اسم حسن
ألق الصورة في هذي العلبة
أنصت
هذي الدقات
تعني انك أكثر تعقيدا
مما قد تتصور »

وبعاود بعناد تلك التجربة الصعبة ، بممارسة واعية يحاول فيها أن يؤطر الكون بالوجود الانساني ، لكن الذي استطاعه فقط هو

الاعتراف بفرار اللون ـ اصعب ما يعانيه الفنان بحياته :

« في هذي الليلة يعجبني
أن أكتب شعرا شفافا
شعرا كالماء
في امكاني مثلا
أن أكتب عن هرب اللون ... »

وليس بدعا .. « فهرب اللون » هو السمة العامة التي اتسم بها نتاج الكثير من حملة الاقلام الذين تعصف في صدورهم رياح الحرية في اطر نظم العبودية .. فعاشوا التمزق والانشطار الداخلي ، في دراما عالية .. فهم ليسوا براضين عن واقعهم ، كما ليسوا بقادرين على تصوير هذا الواقع صراحة ، حتى لكأن حافظ ابراهيم يترجم عن دخائل نفوسهم بهذا التعبير الرائع بواقعيته :

اذا نطقت فقاع السجن متكأ وانسكت فانالنفس لم تطب

ولذا كان للنفاق الاجتماعي والسياسي مدرسته الخاصة،وكان له من حملة الاقلام سباقوه الذين ظلوا ـ حتى في ارقى سموهم الذاتي ـ ادنى من حالة المتنبي بتجربته مع كافور عندما قال فيه ، وبداهة ما بينه وبين نفسه ، أو عندما افلت من قبضته :

اريك الرضا لو اخفت النفس خافيا
وما انا عن نفسي ولا عنك راضيا

ومع ذلك يرصد الشاعر حالة أستاذ كبير في جامعة شرقية ، عاش ماساة هذا الشرق الكبير ما عاش ، لكنه قال مع النفس الاخير :

« عالمنا الثالث ... يا اخوان
جوعان من فوق
جوعان من ... »

وانطرت صفحة حياة الاستاذ ... وشخص الشاعر من ذاته محاورا يستوضحه اسباب موت الاستاذ ، وظروف تلك الميتة ... الا انه دفع ذاته بذاته لعدم اللجاج ، خوف ألا يكون الجواب مرضيا ... أو حذر نكء الجرح القديم .. الحديث :

« قد تستغرب سبب الموت
لا داعي أن تستفسر
يكفي أن تعلم انك مكبوت
حتى الرمق السابع
أرملة امك في ليل محاق
جائعة ايضا
حتى الرمق السابع
لكنك تكره كل الارقام
تحفظ كل الارقام
الا رقمك .. »

وتجاه كلمة « الرقم » هذه القاسية الصلدة صلادة فولاذ القيود المادية والمعنوية ، والتي يشحنها الرمز باكثر من معنى ، والتي قد يكون من ترجمتها السجن الصغير يغيب فيه الحر ولا يبقى سوى رقم ينادي به ، او الضياع في السجن الاكبر ـ المجتمع ، في حالة يحرّم عليه فيها القول والكتابة والرسم ، ومداخلة الناس ،منبوذا، فردا في مجتمع ليس منه ، غريبا في دياره ، أجنبيا في وطنه ، مجردا من قيمه الروحية ، وباختصار مجرد رقم منسي في ركام بشري ، مفروض عليه ان فكر ان يجتر صور الماضي ويجتر ... يدرج في ارض ان كانت ثرة العطاء ماديا ، فقفيرة حضاريا ومستوى عقليا :

« تاريخك فيم يداج عبر الافلاك
هل تذكر بيتك في الريف
هو من طين يا سيد
أو من زنبق
وبلا جدران بيتك مثل الكف
تحت سماء الشرق البلهاء
ولدتك ظروف يومية
كنت السادس بعد الالف
هل تستغرب هذا الرقم الصدفة
احفظ رقمك »

وفي ظل هذا الرقم ، يجيل الشاعر طرفه بواقعه المشدود بقوة الى الماضي ، في فدرة لم ترغب بشيء رغبتها بحجب الحقيقة عن النفوس الطيبة غير المسلحة بالوعي ... وتتراقص حول باصرتيه صور المآسي حيث القرية « فقر اخضر » ، و « تراب أحمر » ... والانكى صورة زبانية الجمود وسدنته الذين ...

« صبوا اسمنتا ملعونا
في عين الشمس
رسموا الاشكال محددة
نصبوا في الراس
أوثانا حول مذابحها ..
في امكاني الليلة
أن أكتب هذا الشعر الهمس »

وبشحنة هذا الهمس الصارخ جلس الشاعر الى أنيسة روحه تشخيصا ، يساقيها الخمرة وتساقيه ، لكن لا ليفرق في الكاسهمومه وأحزانه ، او ليغيب عن واقعه ، وانما ليشرع الابواب المغلقة على الحجرات المظلمة ، وليخاطب ذلك الجرس الخفي عبر الاذن المصيخة التي كم ذابت في لفح أنفاسها من نفوس :

« يا صمتا يربض خلف الابواب الموصودة ... »

وكثرت الكؤوس التي ليس من معانيها التوهم ، والتي احتوت تلك الخمرة التي سلسلت على شفتي ابن الفارض أجمل أناشيده الروحية .. وانما اختلف هنا الرمز .. فخمرة الشاعر القديم كانت تدفعه نحو المثل الاعلى والفناء في روح الكلي القدرة .. على حين ان تلك الخمرة ـ الرمز تشدّ شاربها الى الام العظمى ـ الارض .. الوطن .. المجتمع .. تتشعشع في الكأس وتتشعشع ، لتتسلسل نشوتها على شفتي الشاعر نبضات حية حيوية :

« صور تحيا
أخرى تفنى
وشموس تبزغ في نفسي
لا .. لم اسكر .. هذي كاسي »

ويغري الشاعر أنيسة الروح بالمزيد .. المزيد من تلك الخمرة ، في حالة روحية هي النقيض المطلق لحالة ابي نواس ، ذلك الشيطان الفذ القائل :

ولما شربناها ودبّ دبيبها الى موطن الاسرار قلت لها قفي

لان ما قصد من تلك الجلسة الى أنيسة روحه ، فك عقال اللسان، وتطهير الجنان :

« كي يلمح عالمنا وجهه
أن يبدع شعرا يشبه نبض القلب »

ولهذا فهو ابدا يطلب المزيد ، تكثيفا لاكسير المعرفة :

« صبي شفقا
صبي سحرا
صبي الكون

يغريني اللون
صبي الانداء معتقة ..
كل الانداء
ما معنى أن يقرع سمعي
وقع الانداء ؟!
أن ابني جسرا من ألق
عبر الانواء ؟
أن يحرق ظلي وجه الماء
أناى .. أناى .. لم اسكر
يغريني اللون ..! »

وفي طيف ذلك اللون ، وفـــي ظل تلك الكأس ، كان للقافية رحلتها التي استكنهت أغوار الذات وأعماق الوجود معا .. امعـــانا بالشطوح تاريخيا حتى عاشت هاتيك « الايام الموعودة » ولتقف بعدها ولترسو في « موانىء مفؤودة » .. ثم ليتجه الى شعراء الحلم ، من حملة أقلام وسياسيين يبصرهم بالدرب ، وبالاداة التي تشـــق ذلك الدرب :

« أن نصعد فوق الاشياء
أن نرقى الاقدار
يلزمنا مجداف مرهف
قد لا يكفي ان ناكل أو نشرب
قد نغرق
نطفو
نتعب » ..

وبكلمة .. لا يكفي الانسان ان يحمل في جوانحه طموح التغيير ، وانما عليه النضال والكفاح لتحقيق ذلك الطموح ، وتلك الرغبة .. أن يحارب الجمود والتخلف ، أن يتصدى لصهر الاصفاد وتحطيـــم الاوثان ، ان يخرج من أسر الازدواجيـــة ما بين القول والعمـــل ، والنظرية والممارسة ... فالكلمة وحدها كسيحة تحت سماء شرقنـا البلهاء ما لم تمزق من أطر الفردية لتنسلك في وعي المجتمـع عامـل محرك تاريخي ... وباختصار لا يكفي ان :

« تعلم ان حدائق عصرك بقع من دم »

او :

« قمر العشاق الاخضر
ياخذ في وهم الجائع
شكل رغيف »

وعلى ذلك ، وبكلمة ناعمة مهذبة ، لكنها تحمـــل وخز الابر ، سلط أنواره الكاشفة على ذلك الواهم الذي تماثل حاله حال الدالج في الليل السائر في نومه ، ومع ذلك يحلم باجتراح المعجزة ، ويطمح لا لتفسير العالم فحسب وانما لتغييره ، والذي قد وفته القافيـــة حقـــه :

« قد يحرث بحرا
قد يقتني كتبا جنسية
قد يعشق زوجة خاله
قد .. قد ..
اما أن يقلب بطن التربة
فالكذبة اكبر .. من حبة بطيخ اصفر »

لان عملية الخروج من الشرنقة ، وكسر قوقعة الجمود ، هيهات ان يتما الا عبر المعرفة ، والتصميم على فهم روح العصر ، وتمثله علما وعملا ، واعتماد قاعدة التغيير صادقين في البناءين الفوقي والتحتي معا ، في قاعدة المجتمع الاقتصادية والمؤسسات الفكرية :

« يا سيد
عالمنا الثالث
ان لم يعتمد العقل
في المعهد .. في المصنع .. في الحقل
يبقى الجائع من فوق
يبقى الجائع من ...
افهم »

ذا ايمان الشاعر ، وذاك ما رصد له احساسه ومـداركه ، ولكن واحرباه .. ما زلنـا خلف الباب المرصود ... مما ترجمتهالشعرية :

« ما زلت المدلج في الربع الخالي
في صحراء النفس !.. »

ولكن .. هل خدرت أنامل الشاعر على أوتاره ..؟ هل اختنـق صوته في حلقه ؟.. هل جفّ نبض احاسيسه .. أم أسلم نفســـه للياس والقنوط ؟ كلا .. فهو ما زال على الخط .. وزاد في طاقته همس أنيسة الروح التي تساقيه كؤوسه .. والتي هي في الحقيقـة نفس الشاعر الذي يعرف ما يمكن أن تجره الكلمة على قائلها مـن جريرة .. نقلا من واحة الهناء الى برزخ الشقاء ، ومن جنة الحيـاة الى جحيم العدم ، ومع ذلك فقد جلجل الصوت بالكلمة التي يجـب أن تقال :

« قالت همسا
هذا شعر رفض الموت
أرسله يصفع وجه الموت
يفقأ عين الموت
يحطم جمجمة الموت
أرسله ...
فجر هذا الصوت
اطلقه مثل الثعبان
في صدر الانسان
أرسله شواظا من نار ..
يجتث الاخضر واليابس
لا .. لا تخش الليل الدامس
.. لن تفقد اكثر مما في قلبك
من نبضات
لن تخسر أجمل مما في أعصابك
من زهرات
لن تعدم اكثر مما تكتم
من كلمات
جرب ... أطلق هذا الصوت !»

وزاد في جهارة صوت الشـــاعر انه تطهر من أوضار الجبـن والتردد ، والفزع والهلع ، غوصا في أعماق نهر الطهر ، في عمليـة استرجاع الذات ، حتى آل الى الحالة التي استطاع فيها القول :

« في امكاني ..
أن المس جدران الكون
أن أغرق في المائج
حتى القعر
كي أحيا ومضات
في قاعات الطهر ! »

« الانسان المشكلة »

الانسان المشكلة
الانسان المشكلة
الانسان
آدم من طيّر في جنبيك جناح النسل
فطرت
ورزقت من النطف البيض ... السود ...
البيض ... السود ... رزقت
وغزوت أقاليم الصمت الفطري
فشبّ الصمت عليك
وتدنس وجه الاشياء البرية
وفشى الموت
وعلى أغصان الليل عصافير
تنقش في صدر الصمت وساما
آدم
من أغرق في عينيك مسيح العصر
فغلى المرجل حزنا
من أنبت في أطرافك ريش البطش
فطاب الموت اليك
فصرت طليقا
وصرير الباب يهشّ علينا
آدم
من أطلقنا عبثا
نتكاثر في بطن التربة مثنى ... مثنى
وخلاصة أوراق الطين
سقوط
آدم
الصفر هو الصفر
فخل الارقام قطارا
يبصق في وجه محطات الملأين
آدم
الانسان المشكلة
الانسان المشكلة
الانسان

حلب — محمود علي السعيد

وزاد في عنفوان الشاعر أكله من خبز شيطان العبقرية الفذ ابي نواس الذي قال في الانسان ما لم يقله غيره فيه :

ومن هذا الايمان بالذات رصد الشاعر ريشته للانسان المبدع ، القادر على التغيير ، ينشده كما نشده سابقا أحد فلاسفة الاغريق على ضوء مصباحه في رابعة النهار ، والذي ظلت عيناه تقعان على الشخوص البشرية ، دون أن يبلغ غايته ، وهيهات ما بين الصورة والماهية :

« أين الانسان
هاتي ورقا
هاتي قلما
كي أرسم هذا الانسان
رأس .. جسم .. عينان
أنف .. بطن .. أذنان
أما أفراح الانسان
أما أحزان الانسان
أما أبعاد الانسان
أولست معي
هذي أشياء .. لا ترسم
قد تفهم
أو لا تفهم » ..

وظلت عملية البحث والنشدان .. لم ييأس الشاعر ، كما لم يمل الفيلسوف .. ورغم ان من لقيهم كالاحجار ، فما برحت الرغبة الملحاح تحفزه ، تدفعه بعدا في المدى ، واستكناها في الغور ، بأناة الحليم ، وصبر الحكيم .. ومذ كان الانسان ، على صغر جرمه — كما قال أبو نواس — كان أضخم من في الكون :

« لكن الشاعر لم يغضب
لم يتعب
هو يؤمن بالانسان
أرسل صوتا آخر دفق حنان
الآفا .. كمياه الغدران
خلاقا .. غمر الاكوان »

ذلك لان من يحمل في أعماقه قضية ، ويؤمن برسالة ، هيهات أن يقعده القنوط ، والايمان أبدا تمرد وتفجير طاقات .. لا يقف في حدود ما كان ، وانما يعمل لما يجب ان يكون .. ومتى وقف الابداع الشعري في حدود التعبير عن الآنية فلسفيا وزمانيا ؟.. والسمة المميزة له اختراق جدران الحاضر باعتماد قاعدة المعرفة ذاتيا وموضوعيا ، لتمثل وجه المستقبل :

« وانهمر الضوء
حماما من ألق غامر
شلالا من فرحة .
وارتسمت صور المستقبل لوحه
يشمخ فيها الانسان
ما أروع أن يرسم
انسان فنان
صور المستقبل
ما أجمل أن يثق الانسان
بالمستقبل » .

وكأني بعد ان وقفت على آخر قافية من هذا الديوان الصغير — الكبير — وقد تجاوزت الكثير من صوره الابداعية ولا سيما أسطورة الحب فيه ، رحت أسترجع صورة غوركي عندما كنت أتابعه في روايته الضخمة « أين الله » ... ذلك العبقري الجبار الذي كم طال نشدانه لمثله الاعلى حتى رآه أخيرا مجسدا حيا عملاقا بجموع الجماهير ... بالشعب الذي اجترح المعجزة فاقام الانسان الكسيح من سريره على هدير صوت ارادته ... وقديما وسم المتنبي شعره بهذه الصفة :

فسار به من لا يسير مشمرا وغنى به من لا يغني مغردا

وتلك وحدها صفة الكلمة الخالدة التي تلمس جدران الكون ... وتقف مع شمس الحقيقة وجها لوجه .

بيروت — نديم مرعشلي